Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

ملامح توظيف الدين لتثبيت المشروع الاحتلالي الفرنسي في الجزائر

Features of the employing religion to sustain the French occupation project in Algeria

عبد الجليل أولاد حمادي- Abdeldjalil Ouled Hammadi
جامعة العقيد أحمد دراية أدرار University of Ahmeddraia Adrar
مخبر المخطوطات الجزائرية بإفريقيا جامعة أحمد دراية أدرار Laboratory of African studies
Adjalil17@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2019-06-02 تاريخ القبول : 2019-11-21

ملخص:

سيقت هذه الورقات لإبراز جانباً مهما من جوانب السياسة الاستعمارية في الجزائر فيما يتعلق بوسائل دعم وخدمة المشروع التوسعي الفرنسي، ألا وهو جانب استغلال الدين لتثبيت الوجود الفرنسي في الجزائر، من خلال ذكر روافد هذا الجانب التي تتمثل في تعيين السلطة الفرنسية للمفتين الجزائريين حسب الولاء لفرنسا، إلى جانب توظيف الخطاب الديني توظيفاً شكليا قصد كسب ود الجزائريين، فضلاً عن صناعة الفتاوى لخدمة المشروع الفرنسي في الجزائر لضرب حركات المقاومة والتحرر. وكذا بسط السلطة السياسية على الشعائر والوظائف الدينية، خصوصا فيما يتعلق بشؤون الإمامة و الحج والأوقاف.

الكلمات المفتاحية: المشروع الفرنسي، استغلال الدين، الأئمة الرسميين، الخطاب الديني.

Abstract:

This paper highlights one aspect of the colonial policy in Algeria, namely the exploitation of religion to establish the French presence in Algeria with regard to the means of supporting and serving the French expansionist project. The paper discusses this aspect in terms of the means employed by the French including appointing a number of Algerian referees according to loyalty to France, the use of the religious discourse formality in order to win the hearts of Algerians. The French also used fatwas to serve the French project in Algeria and strike the resistance and liberation movements. Additionally, the French Colonization wanted to extend its political power over religious worshiping and positions, especially with regard to the affairs of the Imamate, pilgrimage and endowments.

Key words: French project, exploitation of religion, official imams, religious discourse.

-المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

مما لا ريب فيه أن القناعة التي انطلقت منها فرنسا في حملتها الاستعمارية على الجزائر أنها جزء لا يتجزأ من فرنسا، يعني ذلك أن المشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر يقوم على طمس الهوية الجزائرية الإسلامية العربية ومسخها، واستبدالها بالهوية الفرنسية النصرانية، فيخطئ من يظن أن الباعث على احتلال فرنسا للجزائر هو باعث اقتصادي منتهى غايته أن يظفر بأكبر قدر من خيراتها وأموالها...،كلا.

لذلك تعددت وسائل وسياسات المشروع الفرنسي في الجزائر، العسكرية والاقتصادية والسياسية والثقافية...، ومن هذه السياسات السياسة الثقافية التي كانت ترمي إلى جعل الجزائر

مقاطعة فرنسية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى كما أسلفنا، ومن صور تطبيق هذه السياسة الثقافية استغلال الدين وتوظيفه لخدمة المشروع الاستعماري في الجزائر.

لذلك أحببت أن أسلط الضوء على هذه الصورة بدراستها منطلقا في ذلك من إشكالية تقوم على التساؤل التالي: هل وُظف الدين في المشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر؟ وما هي صور هذا التوظيف؟

معتمداً في ذلك على المنهج الاستقرائي في تتبع جزئيات مادة البحث، والمنهج التحليلي في دراستها، والتأليف بينها وكشف مرامها.

من الدراسات السابقة التي لها علاقة بموضوع البحث: موقع المسجد في المشروع الثقافي الاستعماري، للباحث قاصري محمد السعيد، مجلة المعيار العدد العاشر، حيث تطرق فيها الباحث إلى كيف تم ضرب المسجد وتحويله لخدمة الاحتلال من خلال القضاء على الطبقة المثقفة فبي المجتمع، وتدجين الأئمة والفقهاء المتبقين في الجزائر، ومن الدراسات أيضا رسالة دكتوراه تحمل عنوان: الإفتاء والمفتون في الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي، ملاح الهواري، أطروحة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الانسانية والإسلامية قسم الحضارة الإسلامية جامعة وهران سنة 2016، إشراف بن نعيمة عبد المجيد، حيث بحثت الرسالة وظائف المفتين وتعييناتهم، وعلاقة المفتين الرسميين بغيرهم من الأحرار، إلى جانب بحث بعض الفتاوى التي لها علاقة بمفرزات الوجود الفرنسي في الجزائر.

ولعل الإضافة العلمية التي نرجو إضافتها من خلال هذه الدراسة وعطفا على ما تم ذكره في الدراسات السابقة هو توسيع وذكر المزيد من الصور والملامح التي تندرج ضمن السياسة الثقافية في استغلال الدين في بعث المشروع الفرنسي في الجزائر.

لذلك جاءت خطة الدراسة تتكون من مقدمة والقصد منها التعريف بالموضوع، ومطلبين ، حيث جاء المطلب الأول يبحث توظيف الفتوى والخطاب الديني في مشروع الاحتلال يتكون من ثلاثة فروع الفرع الأول: تعيين السلطة الفرنسية المفتين الجزائريين، والفرع الثانيالتوظيف الشكلي للخطاب الديني، والفرع الثالث: نماذج من الفتاوى الموظفة لخدمة المشروع الفرنسي في الجزائر، أما المطلب الثاني فجاء بعنوان: بسط السلطة السياسية على الشعائر والوظائف الدينية، يتكون من ثلاثة فروع، الفرع الأول:في تعيين علماء الدين الرسميين المواليين للسلطة، و الفرع الثاني: في تدخل الحكومة الفرنسية في شؤون الحج، والفرع الثالث: في غصب الأوقاف، وخاتمة الهدف منها الوقوف على نتائج الدراسة.

2-المطلب الأول: توظيف السلطات الفرنسية الخطاب الديني والاشراف على المفتين القائمين به

مما لا شك فيه أنه للخطاب الشرعي دورٌ مهمٌ في توجيه وتغذية صف المقاومة الجزائرية للاحتلال الفرنسي، ولما تفطنت سلطة الاستدمار لهذه الحقيقة راحت تفكر في إمكانية كسب هذا الخطاب أو احتوائه بطريقة أو بأخرى، فعملت على اضطهاد ونفي العلماء والأئمة المخلصين الرافضين للوجود الفرنسي، في حين عملت على دعم وترقية أشباه العلماء الموالين لها، فضلاً عن تضييق دور مؤسسة المسجد واستغلال الأوقاف ونهبها...، ومما لا يخفى على أحد أهمية منصب المفتي ودوره المؤثر لدى العامة بل وحتى الخاصة من أهل الإسلام لذلك اتجهت فرنسا نحو استغلال هذا المنصب من خلال تعيين مفتين وقضاة رسميين في مختلف ربوع الجزائر لتمكين المشروع الاحتلالي الفرنسي في الجزائر.[1]

2-1-الفرع الأول: الاشراف على تعيين المفتين الجزائريين ووظائفهم

من مقاصد السلطة الفرنسية من تعيين المفتين الجزائريين هو القضاء على الغيرة والجرأة في نفوس هؤلاء وهذا يصب في هدف جعل الدين باردا لديهم، إتلاف حس الجهاد والبغض للمحتل الفرنسي في نفوس أفراد الشعب الجزائري، وقد كانوا نظير عملهم هذا تحت الرحمة الفرنسية كما قالوا بعظمة ألسنتهم وقد وضعت لهم أجورا يتقاضونها، فهم بذلك جنود في حملة غير معلنة للمشروع الفرنسي، بل وصل بهم حد الولاء للسلطة الفرنسية حضورهم للطقوس الكاثوليكية والمناسبات الرسمية، وحضور مراسم زواج الفرنسيين الذين يعرفونهم.[2]

وأيضاً عملت فرنسا على تضييق مساحة دور مؤسسة المسجد – باعتبارها أحد أهم مصادر الخطاب الديني- وحصرها في بعض الشعائر التعبدية، لأن الإدارة الفرنسية كانت تخشى أن يستعملها الفقهاء في دفع الناس إلى المعارضة.[3]

وقد تمثلت وظائف المفتين الرسميين الذين عينتهم الإدارة الفرنسية في المشاركة في بناء المساجد والزوايا؛ من خلال حضورهم عند تدشينها وإلقائهم الخطب المشجعة والمحفزة مثل هذه المشاريع.[4] ومن النماذج في ذلك تدشين جامع للجمعة في بلدة فج مزالة بميلة حيث حضر في حفل التدشين المفتي المولود بن الموهوب والفقيه بن العابد المدرس بمدرسة قسنطينة، وقد خطب المفتي خطبة مطولة، ومما جاء فيها استشهاده بأدلة وأقوال لعظماء الدين المسيحي وفلاسفة فرنسا في الإسلام، وهذا ما كان له وقع عظيم في نفوس الحاضرين من الفرنسيين.[5]

إلى جانب الإشراف على الأئمة والمدرسين ضمن مقاطعة الإدارة لكل إقليم أو لكل منطقة من مناطق الجزائر،[6] وأيضا التعليم والإصلاح، والمشاركة أيضاً في مسائل الصيام كإثبات هلال الصيام والإفطار وفي هذا الصدد وجه الشيخ مولود بن الصديق الحافظي خطابا مفتوحاً إلى قضاة المحاكم الشرعية والمفتين يحث فيه على ضرورة الاعتناء برؤية الهلال والتدقيق في ذلك.[7]

2-2-الفرع الثاني: التوظيف الشكلي للخطاب الديني

هناك توظيف آخر لكن في صورة شكلية تمثَّل في عدة مظاهر، منها اقرار التصرف في الدعاء للخليفة يوم الجمعة، فبعد أول جمعة تلت الاحتلال جُرد الدعاء من ذكر السلطان العثماني، وجاء الدعاء بعد أخذ ورد بين العلماء ورجال الدين في الصورة التالية: " اللهم أيّد من أيد الملة الحنيفية، وأحيي قلب من أحيا قلب من أحيا السنة النبوية، ونجنا من الفتن الدنياوية والأخراوية، إنك على كل شيء قدير".[8] أي دعاء عام مطلق، يشتمل ضمنيا الدعاء للسلطات الاستدمارية.

ومن الصور أيضا إضافة الفاتحة إلى صلاة الجمعة في بعض المراسم الفرنسية الرسمية كطلب الغفران والتوديم...، بأمر من الحاكم العام الفرنسي، واستندوا في ذلك إلى أن الفاتحة هي التي تقرأ في الاحتفالات والمناسبات الإسلامية العامة، وكان الإمام يدعو قبل الفاتحة بالدعاء الآتي: اللهم أيد حكومة فرنسا المباركة.[9]

بل أوغل الاحتلال في استفزاز الشعب الجزائري عن طريق استغلال الدين، من ذلك تقليد الحكام الفرنسيين للحكام المسلمين في شأن ختم الأختام – ظنا منهم أنهم يمثلون شعباً مسلما-، وكان أول من تجرأ على ذلك الماريشالبوجو. فقد أخذ برأي مستشاريه بطبع ختم يحمل كلمات دينية وعقلية. ثم قلده من جاء بعده من الحكام الفرنسيين منهم: أمير البحر ديقيدون، ولويس تيرمان، وجول كامبون، وليبين وجونار، وكان الختم قد كتب باللغة العربية المسجعة متبوعاً باسم الحاكم الفرنسي العام، مع ذكر تاريخ التولية.[10]

كختم الحاكم ليبين حيث جاء فيه: الواثق بالمعين، عبده ليبين، وإلى عموم قطر الجزائر، وقاه الله سوء الدوائر، سنة 1897م. وختم جونار الذي جاء فيه: الواثق بالفاعل المختار، عبده جونار، سنة 1900، وإلى عموم الجزائرية، حفظه الله في السر والعلانية.[11]

ويذكر المؤرخ أبو القاسم سعد الله سبب إقدام السلطة الفرنسية على اختيار مثل هذه العبارات الدينية، والكتابة بالحرف العربي، انها سبب من أسباب التقرب إلى نفوس الجزائريين ظاهرياً، ولعلها تدل أيضاً على أن الفرنسيين كانوا ينظرون إلى الجزائر – عملياً- على أنها بلاد إسلامية مستعمرة، رغم أن دستورهم يقر أنها جزء لا يتجزأ من فرنسا.[12]

2-2-الفرع الثالث : نماذج من الفتاوى الموظفة لخدمة المشروع الفرنسي في الجزائر

أولاً: النموذج الأول: فتوى ليوون روش

دبرت فرنسا من خلال جاسوسها **ليوون روش**[13] إلى تدبير فتوى الغرض منها إبطال الجهاد، فاتصل ليون رووشبالتجاني عن طريق رسول ليشرح له المهمة التي عزم على تنفيذها، فاستحسنها التيجاني لأنه يراها تبعث الهدوء في نفوس المسلمين الذين حرّضهم الأمير عبد القادر ضد فرنسا[14]، فاجتمع التيجاني مع مقدمين من الطرق المحالفة له واتفق معهم على أن يطلب كل منهم من رئيس طريقته اختيار ممثل له للتوجه نحو القيروان في 19 جويلية 1841م، لإخراج فتوى بهذا الصدد.

ومفاد هذه الفتوى أنه: " يجب على المسلمين مهادنة الكفار الذين غزو بلادهم (أو أراضيهم) بالقوة، وذلك إذا لم يؤذ هؤلاء نساءهم، وأطفالهم، وسمحوا لهم بممارسة دينهم وتركوا لهم حرية إيمانهم".[15]

للتأكيد على مضمون هذه الفتوى قام الجنرال بيجو بختمها بختم نقش عليه شطر الآية التالية: (**إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**)[16]

هذه الفتوى لم يعثر لها على النص الأصلي لذا يتعين التريث والحذر من آراء المؤرخين خصوصا الفرنسيين.[17]كما أن الناظر لهذه الفتوى يجدها تفتقر لتلك الشروط التي تُشترط في الإفتاء منها أن يكون المُفتي على علم بواقع النازلة وما يلابسها من ملابسات، وهذا الشرط قد خرم لما صدرت ممن ليس له علم بواقع الجزائر آنذاك، إذ الأصل أن تكون الفتوى – بالنظر إلى الواقع الجزائري- محرضة على جهاد المحتل لا مطبعة وراضية بوجوده. لذلك قد يحتمل أن تكون هذه الفتوى صناعة مخابراتية فرنسية الغرض منها خدمة وتوسيع المشروع الفرنسي في الجزائر.[18]

إن فرنسا استغلت بعض أشباه الطرق الصوفية التابعة لجهة الاستدمار والتي لها تأثير اجتماعي، من خلال استصدار فتاوى لهم تصب في هذا الجانب، ومن خلال استغلال المصداقية التاريخية لهم.

هذه الفتوى كان لها الأثر السلبي على حركة كفاح الشعب الجزائري للمحتل الفرنسي، لا سيما وقد راح مروجا للفتوى بتوزيعها على مختلف القبائل؛ فأعجب بها – وللأسف- بعض المسلمين الذين ضعفت قواهم وكلّت هممهم وفضلوا الراحة على الجهاد.[19]

ثانياً: النموذج الثاني: فتوى جول كامبون[20]

إن القصد من وراء صناعة هذه الفتوى هو مجابهة حركة الهجرة التي كانت نشطة في الجهات الشمالية من الجزائر.

لأن باعثها باعث ديني؛ لأن البقاء في البلاد التي يحكمها الكافر فيه حرج شرعي كما يراه بعض الفقهاء، والخوف من فرض الجنسية والخدمة العسكرية ، وهذا فيه مساس بالدين.[21]

وجاء نص الفتوى فيما يلي:

"السؤال: ما قولكم في أهل بلدة مسلمين قد استولى عليهم الكافر و صار حاكما عليهم، و لم يتعرض لهم في أمور دينهم، بل يحثهم على إجراء أحكامهم الدينية، و وظف عليهم قاضيا من أهل دينهم يجري عليهم الأحكام الشرعية، و جعل له معاشا وافرا يأخذه على رأس كل شهر، فهل مع هذا تجب عليهم الهجرة أم لا ؟ و هل تجب عليهم مقاومته و محاربته مع عدم قدرتهم على ذلك أم لا؟ و هل بلدهم التي استولى عليها يقال لها دار حرب أم دار إسلام؟ بينوا لنا بيانا شافيا قاطعاً للنزاع أيد الله بكم الدين.

جواب مفتي الحنفية بمكة المكرمة:

قال شيخنا العلامة رحمه الله في جواب نحو المسؤول عنه المهاجرة واجبة من موضع لا يتمكن الرجل من إقامة أمور دينه بأي سبب كان، و من لم يقدر على ذلك يجب عليه الهجرة إن قدر عليها بأن كان له مال يكفيه لمؤنة الانتقال، فقد قال الله سبحانه و تعالى في حق قوم أسلموا و لم يهاجروا مع تمكنهم من ذلك: (**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها**)[22]

فلم يعذرهم ربهم مع استضعافهم بتمكنهم من المهاجرة إلى محل آخر إلا من استثنى في آخر الآية، قال تعالى: (**إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ**).[23]و المعنى أن جهنم مأوى جميع من ترك الهجرة إلا من هو استضعف من جنس الرجال و النساء و الولدان حال كونهم لا يستطيعون حيلة في الخروج لعجزهم و فقرهم و لا يهتدون سبيلا أي لا معرفة لهم بالمسالك فولئك عسى الله أن يعفو عنهم ترك الهجرة.كذا قاله علماء التفسير.

و قال صلى الله عليه و سلم: "**مَنْ فَرَّ بدينه من أرض إلى أرض وَ إن كانَ شبرًا من الأرض، استوجَبَتْ لَهُ الجَنَّةَ و كَانَ رفيقَ أبيه ابراهيم و نَبيّه محمد صَلَواتُ الله عليهم أجمعينَ**"[24]، و في "معراج الدراية[25]" عن المبسوط: "البلاد التي في أيدي الكفار بلاد إسلام، لا بلاد حرب لأنهم لم يظهروا حكم الكفر بل القضاة و الولاة مسلمون يطيعونهم عن ضرورة أو بدونها، و كل مصر فيه ومن جهتهم يجوز له إقامة الجمع و الأعياد و الحدود. فلو كان الولاة كفارا يجوز للمسلمين إقامة الجمع و يصير القاضي قاضيا بتراضي المسلمين و يجب عليهم أن يلتمسوا واليا مسلما"[26].

وفي تنوير الأبصار و شرحه الدر المختار: " لا تصير دار الإسلام دار حرب إلا بأمور ثلاثة بإجراء أحكام أهل الشرك و باتصالها بدار الحرب و بأن لا يبقى فيها مسلم أو ذمي آمنا بالأمان الأول على نفسه"[27].

قال "العلامة الطحطاوي[28]" في حاشيته عليه" وظاهره أنه لو أجريت أحكام المسلمين و أحكام أهل الشرك لا تكون دار حرب.

فعلم مما نقلناه أنه، متى وجد قاض من المسلمين و لو بإقامة الكافر له و أجريت أحكام المسلمين على ما وصف أعلاه، لا تخرج البلاد عن أن تكون دار إسلام و الله سبحانه أعلم.

أمر برقمه خادم الشريعة و المنهاج عبد الرحمان بن عبد الله سراج الحنفي[29] مفتي مكة المكرمة كان الله لهما، حامدا مصليا مسلما.

جواب مفتي الشافعية بمكة المكرمة

الحمد الله وحده و صلى الله و سلم على سيدنا محمد و على آله و صحبه و السالكين لنهجهم بعده اللهم هداية للصواب.

في فتاوى العلامة الشيخ محمد بن سليمان الكردي[30] محشي شرح ابن حجر أن إقامة المسلمين بدار الكفر على أربعة أقيام إما لازمة بأن قدروا على الامتناع من الكفر و الاعتزال عنهم و لم يرجوا نصرة المسلمين لأن موضعهم دار إسلام، فإذا هاجروا صار دار حرب، أو مندوبة بأن أمكنهم إظهار دينهم و يرجى ظهور الإسلام أو مكروهة بأن أمكنهم و لم يرجو ذلك، أو حرام بأن لم يمكنهم إظهار دينهم، فحينئذ إذا كان في إظهار الدين و أحكام المسلمين من حدود و غيرها إهلاك البلاد و قتل المسلمين بسبب أنه يتعطاه الوالي الكافر و لا يفوضه إلى حكم الإسلام، حرمت الإقامة عندهم، و وجبت الهجرة إلا لعاجز لا يقدر عليها فيعذر، انتهى.

و في شرح الجمال الرملي على المنهاج والأوجه أن دار الإسلام التي استولوا أي الكفار عليها كذلك أي في التفصيل المذكور"[31].

جواب السؤال الثاني: لا تجب مقاومة الكفار مع عدم القدرة و الله أعلم.

جواب السؤال الثالث: أن بلاد الإسلام لا تصير باستيلاء الكفار عليها دار حرب و الله سبحانه و تعالى أعلم.

المرتجي من به كل النبل محمد سعيد بن محمد بابصيل مفتي الشافعية بمكة المحمية غفر الله له و لوالديه و مشايخه و جميع المسلمين.

جواب مفتي المالكية

الحمد لله وحده، اللهم هداية للصواب أما بعد:

فإنني قد نظرت فيما أفاده السادة الأعلام فوجدته هو الصواب المعول عليه، و لا يكون الاعتماد إلا عليه، فجزاهم الله أحسن الجزاء، و أقام بهم شعائر الدين و بالله الاعتماد. أمر برقمه مفتي السادة المالكية بمكة المحمية محمد عابد ابن المرحوم الشيخ حسين.[32] ختم المفتي."[33]

هذه الفتوى كسابقتها من حيث بعدها عن الواقع الجزائري بظروفه المختلفة، لكن رغم ذلك كان لها أثرها البيّن في التوسع الفرنسي في الجنوب الجزائري ومنه نحو المغرب، وتقويض المقاومة الجزائرية ، وشق الصف الجزائري وسحب البساط من تحت أقدام فقهاء وعلماء الجزائر باستيراد مثل هذه الفتاوى. من خلا ترويج ونشر هذه الفتوى.[34]

ثالثاً: النموذج الثالث: خطاب بعض الفقهاء بعدم التعرض لموكب القائد العسكري الفرنسي.

" الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، إلى إخواننا المسلمين في البلدان والقرى من عرب وأتراك وقبايل: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد:

اعلموا رحمكم الله أن الجلنار السر عسكر الذي ملكه الله بلادنا بحكمه النافذ، وتقديره السابق، قد علمنا منه وتحققنا أن خروجه إلى ناحيتكم لم يكن بقصد حرب ولا قتال، وإنما هو بقصد الاستيلاف والتفرج، وإعانة الضعفاء، وأنه يسالم من يسالمه، ويحسن إلى جميع من لقيه بغير سلاح، ويعطي ثمن كل ما يشتريه، ممن يأتيه بثمن يرضيه، وأعطانا عهدا لله وميثاقه على ذلك بأيمان مغلظة، بحيث لم يبق لنا شك في ذلك قال الله تعالى: (**وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**)[35]ونصيحتنا لجميعكم هي أن تجنحوا إلى ما أمر الله وصونوا دماء المسلمين، ونحن نضمن لكم أن لا يعتريكم منه في خروجه هذا ما يضركم، لا فرق في ذلك بينكم وبين من بالمدية، فإنه آمن على نفسه وبلاده وعساكره، ما لم يتعرض لمكروه، فأما من شهر السلاح وأراد الحرب منكم فوباله على نفسه، والسر عسكر مجبور على مدافعته ومقابلته بالحرب، والصلح خير وكل أحد مقرر على دينه وأملاكه وما تحت حوزه، وهذا ختمه وطابعه مقرر لما أعلمناكم به، وهذا ما وجب إعلامكم به، والله الموفق بتاريخ أواخر جمادى الأول عام 1246ه ستة وأربعين ومائتين وألف"[36].

لا شك أن هذا النداء هو في الحقيقة في حكم الفتوى، لكن للأسف لم يعبر على مستوى تطلعات الجزائريين الرافضين للاحتلال، فالأصل أن يصب خطاب الفقهاء في مثل هذه الحالة في شحذ الهمم لمكافحة المحتل لاسترداد الأرض، لأن الجهاد ما شُرع إلا لحفظ الإسلام والمسلمين، ومن مظاهر هذا الحفظ أن يكونوا أحرارا في أنفسهم وممتلكاتهم.

ثم إن الحجج التي سيقت لتبرير هذا الموقف المحرج لا تقوم ولا تستقيم، لأن الواقع والتاريخ يشهد شهادة حق على بشاعة الجرائم التي ارتكبت في حق المسلمين الجزائريين عند غزو الجزائر، ثم منذ متى كان لأهل الكفر عهد وميثاق وما أقبلوا على احتلال الجزائر إلا من أجل المسخ والطمس للملة والدين، والله تعالى يقول: (**وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ**)[37]

أما بخصوص الاستدلال على إثبات الهدنة فيظهر – والعلم لله- أنه استدلال في غير موضعه ولي لأعناق النصوص، قال التسولي: " قلت: "...وكيف يصح الصلح والهدنة من العدوّ الطالب للمسلمين النازل بأرضهم؟!، والله سبحانه يقول: (**كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ**)[3938]، والمقرر شرعاً أن الجهاد يتعين لو طلب العدو بلاد المسلمين.

3-المطلب الثاني: بسط السلطة السياسية على الشعائر والوظائف الدينية

من الوسائل الدينية التي استُخدمت في تمكين المشروع الاستعماري في الجزائر بسط السلطة على الشعائر الدينية كسلطتها على المساجد، والقضاء، والأوقاف، ومنصب الإفتاء، وإمامة الصلاة والصوم والحج...، وسنمثل لذلك بمثل كما سيأتي، فظلت متحكمة في ذلك رغم صدور قانون فصل الدين عن الدولة بتاريخ 27 سبتمبر سنة 1907، حيث نص على إعطاء الناس حرياتهم الكاملة في كل ما يتعلق بدياناتهم، لكنه ظل حبيس الأوراق خاصة فيما يتعلق بشأن الدين الإسلامي، وظلت الإدارة الفرنسية في الجزائر تتصرف وتتدخل في الأوقاف والمساجد، ومختلف الوظائف الدينية.[40]

3-1-الفرع الأول: تعيين رجال الدين الرسميين الموالين للسلطة: لأن رجال الدين الرسميين اختارتهم حكومة متسلطة، وما اختارتهم إلا بعد أن ارتضتهم ووزنتهم بميزانها لا بميزان الإسلام، وراعت فيهم شروطها لا شروط الإسلام، ولم تراع في هذه الوظائف بالعلم، ولا بالكفاية الدينية، وإنما تحفل بشيء واحد هو الولاء للسلطة الغاصبة، وإنها لا تدفع لهم الأجور على الصلاة والأذان والفتيا فسواء عندها أصلى المسلمون أم لم يصلوا، وإنما تدفعها لغايات ومقاصد السلطة الغاصبة.[41]

والأمر نفسه في القضاء الشرعي من خلال تدخل الإدارة الفرنسية في القضاء الشرعي بتعيين القضاة الموالين لها في وظائف القضاء، وتعقيد الاجراءات القضائية وتكثير اللوائح، والتباطؤ الممل في سير القضاء وغير ذلك، مما أنتج تدهورا في القضاء الشرعي وزهد الناس فيه لحساب القضاء المدني.[42]

ومن الوظائف الدينية التي احتوتها سلطة الاحتلال وظيفة لجنة الأهلة ولا شك أن في ذلك أثراً على شعيرة الصيام والأعياد...، ومن صور هذه السلطة تلاعب لجنة الأهلة الرسمية المحسوبة على الإدارة الفرنسية، و تساهلها وعدم جديتها في شأن هلال شوال ورمضان، فشتت شمل المسلمين فيهما بين من يتحرى ويأخذ أمر الأهلة بجد من الشرعيين المستقلين كجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وبين تلاعب لجنة الأهلة الرسمية[43].

3-2-الفرع الثاني: تدخل الحكومة الفرنسية في شؤون الحج: لأن نظرتها له تتمثل في اعتباره في أداةً لاستعباد الأمم الإسلامية التي أوقعها القدر في قبضته، يصرفهم بها في مصالحه، ويستخدمهم بسببها في أغراضه كما تشاء أهواؤه لا كما يشاء الإسلام وتقتضيه حكمته، ويجعل من وجوبه عليهم وسيلة لإخضاعهم وإذلالهم واستنزالهم على حكمه.[44]

ووضع العراقيل أمام المسلمين الجزائريين تجاه هذه الشعيرة، باشتراط شروطا تثقل كاهله، وتتنافى مع عقيدته ودينه.

وقد اشترطت على المتقدمين لطلب التأشيرة لأداء مناسك الحج البراءة من التهم والإجرامات المدنية والسياسية: وهذا شرط وجدت فيه الملاذ والسعة للتضييق على الجزائريين الأحرار، واستغلال كل ما يتعلق بالحج، لأن المواطن الذي يحب وطنه ويناضل من أجله ومن أجل هويته فهو في نظر المحتل مجرمٌ سياسيٌ، ثم إنه شرط يتعارض مع أحكام الشريعة لأن المجرم الذي يريد التوبة هو أحوج الناس إلى الحج ليغفر الله له ذنبه، وكذلك المجرم الذي يتعاطى شرب الخمر والزنا ليس مجرماً في نظر الاحتلال وبالتالي يمكنه أن يحج وأن يتولى بعض الوظائف الدينية طالما أنه ليس مجرماً في نظرهم!!![45]

ولعل وجه استغلال الحج لخدمة المشروع الفرنسي الاستعماري يتجلى في هذا التضييق خشيته اتصال المسلمين وتعارفهم، لما في ذلك من توفير لأسباب الوحدة بين المسلمين من مختلف أقطارهم وهذا ما يخشاه الاحتلال لأنه يضرب مشروعه الاحتلالي التوسعي.[46]

3-3-الفرع الثالث: غصب الأوقاف: لأن هذه الأوقاف هي تحت غصب الإدارة الفرنسية، واتخذتها سبيلاً لضرب الإسلام والمسلمين، لأن الاحتلال وزعها على الأوروبيين والهيئات التبشيرية والجمعيات المسيحية.[47]

4-الخاتمة

في نهاية هذه الدراسة نقرر النتائج التالية:

-تنوع وتعدد أساليب ومسالك المشروع الفرنسي في الجزائر؛ لأن مشروع الاحتلال الفرنسي قد يختلف عن غيره من المشاريع الاحتلالية الغربية، إذ يقوم على ايديولوجية دينية تهدف إلى القضاء على الإسلام والتمكين للصليب وهذا ما شهدته الوقائع التاريخية طيلة فترة الاحتلال الفرنسي في الجزائر.

-إن توظيف الدين لتكريس المشروع الفرنسي جاء بعد إدراك السلطة الفرنسية لدور سلطان الدين على النفوس، فهو المحرك الأساس الذي نهض بحركة جهاد المحتل إبان الاحتلال، فعملت فرنسا على بسط نفوذها فيما يتعلق بالدين لاستغلاله عن طريق التحريف والتدليس والتدجين، في بسط نفوذ مشروع الاحتلال.

تجلّت صور استغلال الدين في المشروع الاحتلال الفرنسي في الجزائر فيما يلي:

1- تعيين السلطة الفرنسية للمفتين الجزائريين، وهذا عن طريق الولاء دون النظر إلى مبدأ العلم والكفاءة.
2- بسط السلطة السياسية على الشعائر الدينية من ذلك تعيين الأئمة، وسلطتها على لجنة الأهلة
3- تدخل الحكومة الفرنسية في شؤون الحج
4- غصب الأوقاف وتوجيه مداخيلها المالية لخدمة المشروع التبشيري في الجزائر.

-إن آثار سياسة توظيف الدين في المشروع الفرنسي تجلت في إطالة عمر الاحتلال وابتعاد الناس عن التعاليم الإسلامية؛ لأن الأصل في الدين هو التحريض على قيم الحرية، وجهاد المحتل، لكن لما تم تقويض المؤسسات والوظائف الدينية وتدجينها تم القضاء على هذه الخاصية.

-إن مخاطر هذه السياسة كانت سببا في إثارة قضية فصل الدين عن الدولة الفرنسية؛ أي توسيد المؤسسات والوظائف الدينية إلى رجال وهيئات تعبر عن الشعب وعن هويته الأصيلة لا علاقة لها بالإدارة الفرنسية، وقد أخذت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على عاتقها الترويج والنضال من أجل هذه القضية عبر وسائلها المختلفة، عن طريق العرائض السياسية، والكتابة في المجلات والصحف، وإصدار فتاوى شرعية لها علاقة بهذه القضية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

5-قائمة المصادر والمراجع

01-محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي بيروت – لبنان ط 1 1997م.

02-أبو الحسن التسولي، أجوبة التسولي على أسئلة الأمير عبد القادر في الجهاد، تح عبد اللطيف أحمد الشيخ محمد صالح، دار الغرب الإسلامي ط1 1996م.

03-الزركلي، الأعلام ، دار العلم للملايين ط: 15 - أيار / مايو 2002 م.

04- ملاح الهواري، الإفتاء والمفتون في الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي، أطروحة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الانسانية والإسلامية قسم الحضارة الإسلامية جامعة وهران سنة 2016، إشراف بن نعيمة عبد المجيد.

05-ابن أبي الوفاء الحنفي، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، تح عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر ط2 1993م.

06- علاء الدين الحصكفي الحنفي ، الدر المختار شرح تنوير الأبصار وجامع البحار، تح عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية دم، ط1 2002.

07- الزمخشري، الكشاف، تح عادل أحمد عبد الموجود و علي محمد معوض، مكتبة العبيكان-الرياض دولة السعودية، ط1 1998م 557.

08- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي ط1 1998م، بيروت – لبنان.

09-الزيلعي، تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، تح عبد الله بن عبد الرحمن السعد، دار ابن خزيمة - الرياض – ط1 1414هـ.

10-ابن عابدين، حاشية ابن عابدين، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت- لبنان 2000م.

11- عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تح إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي بيروت – لبنان 19982م، 1/ 467.

12-يوسف مناصرية، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1990، دط.

13- قاصري محمد السعيد ، موقع المسجد في المشروع الثقافي الاستعماري، مجلة المعيار العدد العاشر، ص 182.

14- http://data.bnf.fr/en/12177642/jules_cambon/، 31/05/2018/ 19:27.

15- http://alhejaz.org/torath/0712601.htm.-

16- http://cb.rayaheen.net/showthread.php?tid=12881-

17- http://www.alhejaz.org/torath/0712601.htm-

18- http://www.al-jazirah.com/2011/20110929/cu19.htm

[1] ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي ط1 1998م، بيروت – لبنان، 4/ 351- 352.

[2] ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي 4/ 352.

[3] ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي 7/ 76.

[4] ملاح الهواري، الإفتاء والمفتون في الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي، أطروحة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الانسانية والإسلامية قسم الحضارة الإسلامية جامعة وهران سنة 2016، إشراف بن نعيمة عبد المجيد ص 69.

[5] المرجع السابق ص 73-74.

[6] تاريخ الجزائر الثقافي 4/ 352.

[7] ينظر: الإفتاء والمفتون في الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي ص 110.

[8] تاريخ الجزائر الثقافي 4/ 353.

[9] تاريخ الجزائر الثقافي 4/ 354.

[10] تاريخ الجزائر الثقافي 4/ 354.

[11] ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي 4/ 355.

[12] تاريخ الجزائر الثقافي 4/ 356.

[13] ولد ليون روش في مدينة غرونوبل (grenoble) بفرنسا سنة 1809م، وتوفي في نفس المدينة سنة 1901م. قدم إلى الجزائر سنة 1832م، بعد ذلك بعثته فرنسا جاسوسا داخل جيش الأمير عبد القادر حيث أظهر الإسلام تظاهراً، فتمكن بمكره وخداعه كسب ثقة المسلمين وعمل على إرسال الرسائل التي تحمل المعلومات الدقيقة عن دولة الأمير عبد القادر. ينظر: يوسف مناصرية مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1990، دط، ص 13 وما بعدها.

[15] مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب ص 41، نقلاً عن Ideville, corr,bugeaud,T2,PP,313-314.

[16] الأعراف: ١٢٨، ينظر: مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب ص 42.

[17] مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب ص 77.

[18] ينظر: قاصري محمد، موقع المسجد في المشروع الثقافي الاستعماري، مجلة المعيار العدد العاشر، ص 182.

[19] ينظر: مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب ص 42.

[20] دبلوماسي فرنسي بدأكامبون حياته المهنية كمحام في عام 1866 ، وخدم في الحرب الفرنسية البروسية ودخل الخدمة المدنية في عام 1871. كان يخدم في الجزائر في منصب ثانوي وفي عام 1891 أصبح حاكما عاما للبلاد. مات في 19 سبتمبر 1935م. ينظر: http://data.bnf.fr/en/12177642/jules_cambon/، 2018/05/31/ 19:27.

[21] جمال قنان، نصوص سياسية جزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية 2009، دط ص 262.

[22] النساء: ٩٧

[23] النساء: ٩٨.

[24] ذكره الزمخشري في الكشاف، تح عادل أحمد عبد الموجود و علي محمد معوض، مكتبة العبيكان-الرياض دولة السعودية، ط1 1998م 4/ 557، حكم عليه الزيلعي بأنه مرسل عن الحسن البصري ينظر: الزيلعي، تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري ، تح عبد الله بن عبد الرحمن السعد، دار ابن خزيمة - الرياض – ط1 1414هـ 1/ 351- 3/ 50.

[25] معراج الدراية في شرح الهداية هو كتاب لقوام الدين محمد الكاكي المتوفى سنة 749هـ من فقهاء الحنفية، وأعتقد أن هذا الكتاب لا يزال مخطوطاً. ابن أبي الوفاء الحنفي، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، ، تح عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر ط2 1993م، 4/ 295

[26] ينظر: ابن عابدين، حاشية ابن عابدين، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت- لبنان 2000م 2/ 140.

[27] علاء الدين الحصكفي الحنفي، الدر المختار شرح تنوير الأبصار وجامع البحار، تح عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية دم، ط1 2002، 1/ 338.

[28] أحمد بن محمد بن إسماعيل الطحطاوي الحنفي المصري شيخ الحنفية بالديار المصرية المتوفى سنة 1231. عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني ، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تح إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي بيروت – لبنان 19982م، 1/ 467، الأعلام 3/ 224.

[29] عبد الرحمان بن عبد الله سراج الحنفي ولد بمكة سنة 1873م تولى منصب الإفتاء الحنفي بمكة المكرمة سنة عن طريقأمير مكة الشريف علي باشا حيث أصدرأمراً بتعيينه في هذا المنصب فتولى أمانة إفتاء الأحناف من عام 1325هـ الى عام 1343هـ/ 1907م الى عام 1924م، توفي سنة 1948م.

مجلس الوكلاء في مكة المكرمة نواة السلطة التنفيذية (مجلس الوزراء) في عهد الملك عبدالعزيز 1350 - 1373هـ (1931 - 1953م)، عبد الرحمن الشبيلي يوم31/ 05/ 2018، 12:22 زوالاً. http://www.al-jazirah.com/2011/20110929/cu19.htm

د. عبد الوهاب أبو سليمان، الإفتاء في مكة المكرمة والمدينة المنورة ماا قبل الحكم السعودي ، 31/ 05/ 2018، 12:24. http://alhejaz.org/torath/0712601.htm

[30] هومحمد بن سليمان الكردي: فقيه الشافعية بالديار الحجازية في عصره. ولد بدمشق، ونشأ في المدينة، وتولى إفتاء الشافعية فيها إلى أن توفي سنة 1780م، من كتبه الفتاوى ،وجالية الهم والتوان عن الساعي لقضاء حوائج الإنسان ، وفتح القدير باختصار متعلقات نسك الأجير ، والحواشي المدنية على شرح ابن حجر للمقدمة الحضرمية ،و عقود الدرر في مصطلحات تحفة ابن حجر. الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين ط: 15 - أيار / مايو 2002 م.6/ 155، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات 1/ 483.

[31] نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج8/ 82

[32] هو محمد عابد ابن المرحوم الشيخ حسين مفتي المالكية في مكة المكرمة، حيث تولى الإفتاء بعد وفاة والده حسين بن ابراهيم بن حسين بن محمد بن عامر المالكي (ت 1293هـ) مع أخيه محمد علي، ثم عزل عن منصب الإفتاء وأعيد إليه من طرف أمير مكة الشريف علي بن الشريف عبدالله سنة 1323هـ، توفي سنة 1341 هـ

أبو البتول، شبكة روض الرياحين، http://cb.rayaheen.net/showthread.php?tid=12881، 2018/05/31، 14:29

عبد الوهاب أبو سليمان، مجلة الحجاز، http://www.alhejaz.org/torath/0712601.htm 31/ 05/ 2018 . 14:30.

[33] نصوص سياسية جزائرية ص 262- 264.

[34] ينظر: موقع المسجد في المشروع الثقافي الاستعماري ص 189.
[35] الأنفال: ٦١
[36] نصوص في تاريخ الجزائر ص 57.
[37] سورة البقرة: ١٢٠
[38] سورة التوبة: ٧.
[39] التسولي، أبو الحسن، أجوبة التسولي على أسئلة الأمير عبد القادر في الجهاد، تح عبد اللطيف أحمد الشيخ محمد صالح، دار الغرب الإسلامي ط1 1996م.ص 273
[40] ينظر:محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي بيروت – لبنان ط 1 1997م.2/ 141.
[41] آثار محمد البشير الإبراهيمي 3/ 89.
[42] آثار محمد البشير الإبراهيمي 3/ 131.
[43] ينظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي3/ 113.
[44] آثار محمد البشير الإبراهيمي 3/ 75.
[45] ينظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي 3/ 75.
[46] ينظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي 3/ 75.
[47] آثار محمد البشير الإبراهيمي 5/ 237.